قراءة في مذكرات عبد الوهاب المسيري:

"رحلتي الفكرية: في البذور والجذور والثمار"

د/عزالدين معميش

كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر

إن المنظومة الفكرية الغربية التي اتسعت فشملت الفلسفة والتاريخ والانثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس والفكر السياسي، إنما كانت رهينة ميتافيزيقا الحضور المركزي، والذي يعني بالأساس الإيمان بفكرة عدم نقاء العنصر الإنساني، والتي قادت إلى نتيجة غاية في الأهمية والخطورة، ليس على الفكر المجرد فحسب، إنما على المستوى الحضاري والسياسي والاقتصادي والعرقي، فقد كرّست: الفردية بدل التعددية، والوحدة بدل الاختلاف، والروح بدل المادة، والأبدية بدل الزمن.

ولقد سعى مجموعة من المفكرين الإنسانيين إلى تقويض النموذج الحضوري المركزي الغربي الميتافيزيقي المتعالي، وكلّ نموذج في العالم يحذو حذوه، فإبراز التعدد والاختلاف وإلغاء المركزية وفكرة نهاية التاريخ، هو الذى يسمح بظهور بدائل حضارية وفكرية وفلسفية تتغاير في نظمها وأهدافها عمّا أرسته الميتافيزيقا الغربية.

ومن هؤلاء المفكر العربي الكبير الأستاذ الدكتور "عبد الوهاب المسيري" (1938- 2008)، الذي استرجع هذا النضال الشرس من خلال مذكّراته في كتابه الصادر عام 2005 عن دار الشروق بالقاهرة، والموسوم ب: "رحلتي الفكرية: في البذور والجذور والثمار"، في 726صفحة مع ملحق بالصور. ولعل أبلغ استهلال لقراءتي المفتوحة له ما جاء في: "الكلمة المهموسة عن مسرح أنطوان آرتو"[1] الذي يسمى: "بمسرح القسوة "(ومسرح القسوة: في نظر آرتو هو: الفعالية المسرحية التي يجب أن تخترق الوجود والجسد، وتعيد ترميمهما من أقصاها إلى أقصاها، بحيث تؤدي إلى الانبعاث الجديد أو الولادة الجديدة، لأنه كما يصف، ولد ميتا)[2]، حيث يجد المسيري هذا الشكل المسرحي مناسباً ليعبّر عن إشكالية الأصول

والمدلول المتجاوز في الحضارة المعاصرة، بما أنها مكّنت لهذا المسرح، فمسرح القسوة يطرد الدين من الحياة، فالمشهد المسرحي (الحياة المعاصرة) يظل لا دينيا طالما هيمنت عليه الفعالية الإلحادية في ظل الغياب التام لمنظومة فكرية عقلانية حياتية متكاملة مستمدة من وحي الدين الخالد.

هذه هي الصورة الحقيقية التي انغرست في ما وراء سطور مذكّرات المسيري، فتتداخل في جوانبه عديد العواطف الواقعة بين أسر العقلانية والتصوف والتشتت والذهول، إلا أنها في قمة العطاء الإبداعي من ألف المذكرات إلى يائها. وفي قمة المسؤولية تجاه مشروعه ومجتمعه وأمته، وفي قمة التفاعل الحيوي مع كل حدث في منحناه التاريخي.

أبرز أفكار الكتاب:

هي المرة الأولى التي تكتب في عالمنا العربي سيرة حياتية غير ذاتية وغير موضوعية، لا تعيد رسم الأحداث بصورتها الروتينية المعهودة، ولا تحرص على إبراز أسرار شخصية تشبع فضول القارئ ولا تضيف شيئا إلى الرصيد المعرفي والفكري، ولكنها تغوص في تفاصيل الحدث وتقرأه قراءات متباينة حتى وإن كانت شخصية، يقول المسيري: (ومن هذا المنظور تصبح حياتي لا أهمية لها في حد ذاتها، وإنما تكمن أهميتها في مدى ما تلقيه من ضوء على تطوري الفكري، ويمكن القول بأنني فهمت كثيرا من أحداث حياتي الخاصة (الذاتية) من خلال نفس الموضوعات الأساسية الكامنة والمقولات التحليلية التي استخدمتها في دراساتي وأبحاثي (الموضوعية)، وليس العكس . ولعل هذا ما دعاني إلى استبعاد بعض تفاصيل حياتي الخاصة (المغرقة في الخصوصية)، وهي تفاصيل قد تكون مهمة من منظور شخصي، وقد تهم أعضاء أسرتي وأصدقائي، ولكنها لا تهم قارئ هذه الصفحات) [3].

وهذه الطريقة في الكتابة هي نوع من الاستنطاق اللاّمحدود الذي يمارسه المسيري على الكثير من أحداث حياته، يمكن أن يؤدي إلى استنتاج لم يعرفه المسيري نفسه من قبل. وهي طريقة ظهرت مع الآليات الجديدة في قراءة الحدث والصورة والنص إبان ما يسمى بالأزمنة الحديثة في أوربا، خاصة مع "ميرلو بونتي"

من خلال كتابه المشهور :" المرئي واللامرئي the visible and invisible " حيث طوّر فيه فعالية الممارسة القرائية. وبعد سبعة عشر سنة خصّصت المجلة الفنية الفرنسية "Macula" موضوعا مثيرا بعنوان "الحقيقة رسما" "La Verité en Peinture" حيث طرحت ما يعنيه التفكير بالرسم في عالمنا المعاصر، إنه يستنطق العالم المرئي من خلال ما يراه، وينقله عبر ما يرسمه، لتتم قراءته قراءة مفتوحة تجعل الفضاء والضوء يتكلمان، وهو ما يخرج الرسم أو الكتابة من قوقعة الرسام أو المؤلف إلى عالم أفسح وأرحب وأشد إثارة[4].

وذلك بالضبط ما حاول المسيري فعله من خلال رحلته الفكرية في البذور والجذور والثمار. يقول د. أحمد ثابت: (عبد الوهاب المسيري يُقْدم أن يبرز قلقه الفكري والوجداني ورحلة عمره، هي رحلة مع تطور منظومات الفكر العربي الإسلامي والماركسي والغربي بكل أطيافه. يقدّم للشباب العربي تجربة فكرية يمارس فيها عقله سعيا دائبا للحصول على أقصى درجات اليقين، يقين التأمل الذي لا يَقنع بتفسير يريح النفس ويتمترس خلفه، بل يقين يتمكن عبر محاولة صياغة منظومة تحليلية فكرية تؤكد إنسانية الإنسان وقدراته الخلاّقة دوما على التجاوز، بمعنى رفض الأنماط والنماذج المعرفية الغربية المادية والعربية المسطّحة، والبناء أو التأسيس لبنية ذات فعالية تفسيرية عالية) [5] ... إلى أن يقول: (تشعر أن الرجل جرّب الحداثة وما بعد الحداثة والمعلوماتية المبسّطة ،ثم إذا به مفكّرا شامخا من بين قلائل للغاية من مفكّرينا أو ممّن استوعب وهضم جيّدا أبعاد ومغاليق وأسرار ومضامين المدارس والاتجاهات الغربية ،واستكنه ما وراءها من نماذج للتحيّز والعنصرية والامبريالية) [6].

وتجد أحيانا المسيري يريد أن يبوح بسر لا يجرؤ من بلغ مرتبته أن يعلنه، وهو أنه كان عادي الذكاء في صغره وغير مكترث بمضامين الأشياء، وهو ماجعل رحلته الفكرية الحقيقية تبدأ بعد الأربعين. ويحكي المسيري في ذلك قصة لطيفة، إذ يذكر واقعة حدثت له في الولايات المتحدة لما كان في سن الأربعين تقريبا، فقد كانت إحدى عاداته أن يجري في الحدائق في المدينة الجامعية للتخفيف من التوتر الذهني ولزيادة اللياقة البدنية، وبينما كان يعدو، وجد بعض الشباب في سيارة يعلّقون بسخرية: "اذهب واحرق نفسك"، فلم يفهم ما

يقولون، خاصة وأن الشباب الأمريكي على الأقل – كما يقول المسيري – في المنطقة التي يعيش فيها، كانوا في غاية التهذيب، وحينما استفسر من أصدقائه العارفين، أخبروه أنه في مثل هذه السن لابد أن يعاني مما يسمى"أزمة منتصف العمر"(midlife crisis) والتي تعني: "أنّ ما تبقى أكثر مما فات، وأنه لا يوجد مجال للتجريب والخطإ". فيعلق المسيري قائلا: (فدُهشت كثيرا لأنني لم أكن قد بدأت حياتي الفكرية بعد، وأعرف كثيرا من المفكّرين والأدباء في الشرق والغرب والشمال والجنوب ممن بدأوا حياتهم بعد سن الأربعين). ليصل إلى النتيجة المنطقية لتأخر تجربة الإنسان العربي الفكرية وتقهقرها إلى سن متأخرة: (كان المجتمع في دمنهور يحدّد كثيرا من حركات المرء وسكناته، ففي أمر نتصوّر أنه خاص وفردي جدا مثل الملبس، كان المجتمع يقرّر للأفراد) [7]... (ودمنهور كانت تعيش داخل إطار صارم من القيم الدينية والعرفية التي تضبط حركة كل شيء: مَن يقبّل يد من؟ من يُفسح الطريق لمن؟ ما واجبات كبار العائلات؟ وما حقوقهم؟ وما واجبات الأهالي وحقوقهم؟...)[8].

رحلة المسيري الفكرية:

وإذا كنا قد أشرنا إلى تأخر رحلة المسيري الفكرية مع كشف الأسباب، فإن البذور والجذور كانت معدّة للعطاء الكبير الذي تواصل إلى آخر حياة المسيري وبعد طبع هذه المذكرات. ويلخصها فيما سماه بمرحلة التكوين، والتي تنقسم إلى أربع فترات:

- البذور الأولى. - بدايات الهوية.
- في الولايات المتحدة. - من بساطة المادية إلى رحابة الإنسانية والإيمان.

ولعل أهم ثمرات هذه المرحلة بفتراتها الأربع، بما أن المسيري قصد من خط سيرة حياته جني الثمار وإبراز المسكوت عنه والمطموس عادة، ما يلي:

1- **أهمية الانشغال بالتاريخ:** ويقصد بذلك من خلال مذكّراته استحضار بيئة النشأة وقيمتها في التشبّث بالمبادئ والأصول، حيث يسرد باعتزاز تاريخ بلدته دمنهور، وأنها من أقدم مدن العالم، وكانت عاصمة للوجه البحري في مصر قبل توحيد القطرين. ويشير أيضا إلى عراقة عائلته وانتمائها إلى الأشراف،

إضافة إلى انتشار هذه العائلة في العالم العربي، فأول مسيري جاء إلى مصر، كان فقيها مغربيا كبيرا، وتوجد بعض فروع المسيرية في السودان وغيرها.

يقول المسيري في أهمية الاهتمام بالتاريخ في السير الذاتية: (والانشغال بالتاريخ يعني أن ينظر الإنسان إلى واقعه باعتباره نقطة يلتقي فيها الماضي بالمستقبل. وينبغي ألاّ يتصوّر الإنسان أن الحاضر عالم بسيط يمكن اختزاله في قانون أو قانونين، وإنما يراه من خلال نماذج وذكريات وتقاليد ورموز، أي: إن الإنسان يواجه العالم من خلال إنسانيته لا من خلال ماديته. والإنسان كفرد ليس هو البداية والنهاية، وإنما هو امتداد للماضي في الحاضر، ومن ثمَّ المستقبل. وبطبيعة الحال لم أكن أدرك كل هذا في طفولتي وصباي، ولكن الإدراك الواعي ليس هو السبيل الوحيد الذي يتشكّل من خلاله وجدان الإنسان) [9].

2- **النضج السياسي وتعلّم السياسة مع تعلّم القراءة والكتابة:** من الأمور البارزة في هذه المرحلة من حياة المسيري، أنه نضج سياسيا بسرعة وفي سن مبكّرة، وهي سمة معظم أبناء جيله على عكس الجيل الحالي، حتى إنه يذكر أنه أصدر مجلّة مدرسية وعمره لم يتجاوز الحادية عشرة، كما أنه شارك في رشق الجنود الإنجليز بالحجارة وعمره سبع سنوات، كما شارك في مقاطعة البضائع الإنجليزية وحرقها، واهتم اهتماما بالغا بالقراءات السياسية والثقافية .

وانضم إلى عدة أحزاب سياسية وهو دون الثامنة عشر، فعرف حزب مصر الفتاة، فالإخوان المسلمون، فالحزب الوطني وهيئة التحرير، وصولا إلى الحزب الشيوعي.

ويطرح المسيري تساؤلا كبيرا عن غياب الوعي السياسي عند أبناء الجيل الحالي، ويرده إما إلى غياب أحزاب سياسية حقيقية أو إلى تأثيرات العلمنة والعولمة في تخريج جيل استهلاكي لا يعرف عن الجهد والنضال والإنتاج شيئا.

3- **صرامة القيم والشعائر والأعراف:** نشأ المسيري في مجتمع دمنهوري تقليدي، يقدّس الشعائر ويرفع من شأن القيم، ويبني يومياته على أعراف لا يجوز الخروج عليها بأيّ حال من الأحوال. ورغم عدم تسليم المسيري بالكثير منها وخاصة المتعلقة بشخصية

الفرد ودوره الاجتماعي والحريات العامة، إلاّ أنه يؤكد أن ذلك أفاده كثيرا وخاصة في فترة انفتاحه على الحياة الجامعية في مصر ثم في الولايات المتحدة، ودور هذه القيم والأعراف في مقاومة الذئاب الثلاثة التي حاولت إدخال المسيري عالم البورجوازية والإلحاد والتيه، كما ستأتي الإشارة إلى ذلك بعد حين.

4- **الرقص مع الذئاب:** ولج المسيري الجامعة سنة 1956 بالأسكندرية، واختار تخصص الأدب الانجليزي، وكان ذلك أول تحد للشاب التقليدي المحافظ، خاصة وأنه أقام وسط جالية يونانية كبيرة. ولكنه ربح التحدي هذه المرة بإتقانه للإنجليزية وتأقلمه مع الوسط الجديد دون تنازله عن تقاليده وقناعاته. بل أصبح لديه الحس النقدي الذي مكّنه من بلورة رؤية علمية حول آفات انفصال البحث العلمي في العالم العربي عن المعجم الحضاري الإسلامي وافتراض أن ثمة معرفة عالمية يجب تحصيلها مقابل إهدار مضامين تراثنا وهويتنا. هذه الرؤية تساعد في دراسة الغرب باعتباره تشكيلا ضمن تشكيلات حضارية أخرى وليس التشكيل الحضاري المطلق.

وعلى كل ولكي نصل إلى موضوعنا، وهو معركة المسيري مع الذئاب الثلاثة، ألا وهي: الذئب الهيغلي، وذئب الشهرة، وذئب الثروة. فبعد إتمام المسيري لدراسته الجامعية في مصر أرسل لاستكمال الدكتوراه بالولايات المتحدة ومكث هناك إحدى عشرة سنة، كانت منفصلة الدراسة بجامعة"رتجرز" والحصول على الشهادة، والتفرغ لإنجاز الموسوعة. والذئب مصطلح مجازي استعمله المسيري للدلالة على الأفكار الخطيرة التي أرادت الفتك به، ومن ثم إبعاده عن القضايا الكبرى التي أراد أن يكرّس لها حياته.

وأوّل هذه الذئاب: الذئب الهيغلي، ويقصد به الأفكار الهيغلية التي أدخلته في مرحلة شكية، انضم خلالها إلى الحزب الشيوعي واعتنق الفكر الماركسي. وإذا كان المسيري قد تغلّب على ذئبي الشهرة والثروة ببعض السهولة، بتفرغه للموسوعة وابتعاده عن الأضواء المؤثرة، وباستغلال الثروة في مشاريعه الفكرية الكبرى، فإن التحدي الهيغلي والماركسي كان شديدا، نتيجة الأسئلة الوجودية الكبرى الملحة، حول الصراع الاجتماعي والطبقي، والوجود المادي

وأصل الكون، وأصل الشرور في عالمنا والغاية من وجودها .... وأسئلة أخرى غير متناهية. وقد صاغ المسيري المرحلة الشكية في قصيدة قصيرة مضمونها(10):

يـــا رب فـــيم خلقتنـــا وتركتنـــا نَـهْبَ الظـلام فـلا ضـياء ولا سـنا
ونـــدبُّ فـــوق الأرض لا نـــدري بهـــا ونـــدبُّ فـــوق الأرض لا تـــدري بنـــا
أنـــا مـــن أنـــا ، أنـــا مـــن أكـــون أم غايـــة ،أنا لســـتُ أعـــرف مـــن أنـــا
وَهْـــم يســـاور مُلحـــدا فيَروعـــه ويخافـــه مـــن كـــان مثلـــي مؤمنـــا

وتساءل المسيري: هل ما ينتابه وغيره عبر هذه الأسئلة الكبرى: شك أم إلحاد؟ وقد أجاب عن ذلك بأن الفراغ الفكري والإيديولوجي في البلد لم يملأه سوى الطرح الماركسي، خاصة وأنه يحمل بذور الثورة على الظلم الاجتماعي. لذلك كانت مرحلة تجربة مع الرفاق اليساريين، لتنتهي بعد زمن يسير نظرا للشخصية النقدية القوية التي يملكها المسيري، فقد لاحظ تناقض السلوك الشخصي للمناضلين الماركسيين مع أي نوع من المثاليات الدينية أو الإنسانية، وأن كمية النرجسية (الإعجاب بالذات) عند بعضهم كانت ضخمة للغاية ومتطرفة، وذاك تناقض صارخ مع ادّعاء عدم وجود المطلقات والمرجعيات الكهنوتية المؤدية إلى مصادرة العقول والإرادة. واستنتج المسيري أن الماركسية ليست قناعة، وإنما تمرد نابع من حقد أعمى تجاه المكبوتات الاجتماعية، وليس بالضرورة من إيمان بوجوب العدالة الاجتماعية.

وقد خرج المسيري من هذه التجربة منتصرا ومستوعبا أكثر من أي وقت مضى لحقيقة الأفكار الإلحادية، ومستفيدا من فهم أعمق للصراع الاجتماعي والجدل التاريخي. وهو ما مكّنه من دراسة الظواهر فيما بعد عبر ما يُعرف بـ: "نماذج التحيّز": لقد(استكنه ما وراءها من نماذج للتحيّز والعنصرية والامبريالية، ليس فقط في ممارسات السياسة الآنية، بل في صيرورة وأحشاء النموذج معرفيا ومفهوميا، ليكشف جوانب الاستعلاء أو النظرة الترانسدتالية، ليكشف أن منظمات وحركات قد تبدو للكثيرين متباعدة منفصلة، مثل: الصهيونية، النازية، الفاشية، الفاوستية، النيتشوية، الداروينية الاجتماعية، هي في حقيقة الأمر متشابكة متداخلة. العديد من مثقفينا: الفكر الغربي لديهم

دائري مندمج متداخل سرمدي لا تاريخي، كأنهم يقولون بيقين غريب : إن العلم والتكنولوجيا لابد بالضرورة أن يرتبطا بشدة بالعقلانية، بينما يتكشّف الأمر للمسيري أن العلم والتكنولوجيا قد حلاّ وانفجرا في زمن اللاعقلانية والتنميط والاختزال) [11].

وهكذا انتهت المرحلة الأولى من رحلة المسيري في البذور والجذور بانتصار عقلاني على التحديات الثلاثة التي واجهته والتي اصطلح عليه اسما دراميا مثيرا:" الذئاب الثلاثة"، ليُكرّس القسم الثاني من حياته للمشاريع الفكرية الضخمة التي قلَّ وجودها في العالم العربي.

المرحلة الثانية: الرحلة الفكرية العميقة:

يمكن أن نصدّر لهذه المرحلة من حياة المسيري بالبورتريه (رسم تشكيلي) الذي طلب أن يرسمه له أحد أصدقائه من الفنانين التشكيليين لما بلغ الأربعين، فرسم له أعماله الصادرة، وهو تعبير رمزي كبير من هذا الفنان على أن عمل المسيري الفكري هو الخالد، وليس الصورة الشخصية كما يفعل الكثيرون، لأن الارتباط بالعمل يكون عميقا ووجدانيا وملهما.

لقد صدر أول أعمال المسيري الفكرية الحقيقية (كما يقول)، سنة 1972 بعنوان:" نهاية التاريخ: مقدّمة لدراسة الفكر الصهيوني"، وكان هذا الكتاب إشارة قوية إلى الاتجاه الذي سيسلكه المسيري في رحلته الفكرية. ومن الغريب أن يتحول متخصص في الأدب الإنجليزي إلى أحد عمالقة الفكر المعاصر، فلا رابط عيانا بين موضوع أطروحته للدكتوراه مع جل أعماله الكبرى، وبداية من كتاب :"نهاية التاريخ" (الكتاب الذي صدر قبل كتاب "فوكو ياما" بإحدى وعشرين سنة)، فقد كان موضوع الأطروحة: "الأعمال الفكرية لوليام وردزورت، ووولت ويتمان: دراسة في الوجدان التاريخي والوجدان المعادي للتاريخ".

وإذا كانت جل المقاربات في زمن الحرب الباردة تحصر الصراع الحضاري مابين الرأسمالية والشيوعية، وكلاهما حاول أن يحسم التاريخ لصالحه ومن ثمة انتفاء الصراع واستقرار المجتمع على النموذج المنتصر، فإن المسيري خرج عن

هذه الثنائية من جهة، وأعاد تصنيف الصراع من جهة ثانية. فقد رأى أن النموذج الوحيد الذي يريد الاستئثار بالتاريخ هو الفكر الصهيوني، بكل تنوّعاته واختراقاته وامتداداته حتى داخل العالم العربي والإسلامي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه رأى أن الصراع في حقيقته العميقة هو صراع ديني وإن تبدّى في أشكال إيديولوجية أو اجتماعية أو سياسية . ولذلك كانت معظم دراسات المسيري حول المشروع الصهيوني : فكرا ورجالا ومصطلحات وإيديولوجيات .

وبعد صدور هذه الدراسة بثلاث سنوات (1975)، جاءت: "موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية – رؤية نقدية" لتوسِّع الدراسة السابقة رغم العراقيل الشديدة التي اعترضته، وأهمها: التهديد باغتياله من طرف المنظمات الصهيونية.

وقد تحدّث في كتابه في الفصول الثالث والرابع والخامس عن المشروع الصهيوني وعن مؤلفاته في ذلك والتي توّجت بالموسوعة الكبرى حول الصهيونية واليهودية، حيث يبرز الجهد الجبار الذي بذله منذ سنة 1975، وكان قد سبقها بكتاب آخر ضمن السياق نفسه، بعنوان: "الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ: رؤية حضارية جديدة"، وقد خصّص صالونا أسبوعيا لتدارس الظاهرة الصهيونية في كل تجلّياتها، ومحاولة تشغيل نماذج تحليلية ذات قدرة تفسيرية عالية للتعامل معها ومع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وتركيبة الكيان الصهيوني من الداخل وبنيته الفكرية والعسكرية والاجتماعية.

ونظرا لعمق هذه المرحلة وغزارتها بالمضامين والدلالات التاريخية والفكرية والسياسية، نستأذن القارئ في عرض أبرز المضامين والمحطات:

1- **الإنسان الطبيعي والإنسان التاريخي:** فقد اكتشف المسيري خلال رحلته الفكرية الفرق الشاسع بين الإنسان المؤمن بالثنائية، الذي يعيش في التاريخ (الدنيا)، ويبحث عن المطلق خارج التاريخ، فهو يفصل بين المطلق والنسبي، ويحلم بالفردوس خارج عالم المادة وخارج الزمان في الحياة الأخرى. وسمى المسيري هذا الإنسان بـ: (صاحب النزعة الربانية).

وبين الإنسان الطبيعي (أسير النزعة الجنينية)، إنسان يرفض الحدود التاريخية والأخلاقية بل والإنسانية، فهو إنسان "روسو" الفيلسوف الفرنسي المعروف، الذي

رأى أن حالة الطبيعة هي البراءة والفردوس والحرية الكاملة، أما حالة الحضارة فهي حالة القيود والعبودية. ومن ثم فيجب كسر القيود والعودة إلى الحالة الجنينية، بلا ضوابط أو قيود.

وقد استحضر المسيري في ذلك كل تجاربه ويومياته في الغرب، ورأى النماذج الاستهلاكية غير القيمية التي تحكم العالم الذي يدّعي التحضّر: (فصورة الإنسان الآن في الولايات المتحدة هي خليط من الإنسان الاقتصادي والجسماني، ولذا نجد الإعلانات في الولايات المتحدة .. توظّف الجنس بلا حياء في بيع السلع، وقد هيمنت هذه الصورة الإدراكية إلى حد كبير على الإنسان العادي الأمريكي رغم مقاومة بعض المثقفين لها) [12] .. (ولكن هذا الإنسان النمطي هو مع هذا إنسان فردي، ممعن في الفردية، في حالة تنافس دائم مع من حوله، فهو ذات مستقلّة، مرجعية ذاتها، لها قوانينها الخاصة، لا يمكنها إرجاء تحقيق الذات (خاصة وأنه لا يؤمن بآخرة، فإن هي إلاّ الحياة الدنيا). ولهذا توقّعاته دائما عالية للغاية، وسريعا ما ينفد صبره) [13] .

2- **الإحساس بالتحيّز: البذور والجذور**: بدأت مسألة التحيّز المعرفي تطرح نفسها في الإسكندرية، إذ لاحظ المسيري التباين في العادات والتقاليد (والنماذج الإدراكية) بين المدينة/القرية من ناحية، وبين المدينة الكوزموبولوتية (الكونية) المصرية اسما، الغربية فعلا . ثم تعمق الإحساس عند دراسة الأديان المقارنة وتاريخ الفن. ثم مع الانتقال إلى الولايات المتحدة.

فقد وصل المسيري إلى قناعة، وهي أن إدراكنا للواقع ليس هو الواقع في حد ذاته: (وتساءلت كيف أنظر إلى ظاهرة ما ؟ هل أنظر إليها من وجهة نظر الآخر (الأمريكي)، أم من وجهة نظري أنا) [14]. وهكذا وصل المسيري إلى نتيجة حاسمة، وهي أن العلم والمعرفة ليس حياديين، وعليه وجب تنقيح هذه العلوم والمعارف من المركزية الغربية، وقراءتها وفقا لمرجعية موضوعية.

وقد أصدر المسيري في ذلك بعض المؤلفات، وأشرف على موسوعة مشهورة، "موسوعة إشكالية التحيّز" في مختلف العلوم الإنسانية والكونية وبأقلام متخصصين. وكان ذلك سنة 1992.

3- **الوعي بالموت:** رغم أن الموت له مهابته، فقد تعايش معه المسيري مدة عشرين سنة، عند الأعراض الأولى للسرطان، وأدى هذا التعايش إلى وعي المسيري الموت وصحبته صحبة فلسفية، عمّق خلالها من نظرته للحياة وقيمة الكثير من الأشياء، ثم ازدادت مع بعض الأحداث المؤلمة والمؤثّرة: (يوم انتهيت من الموسوعة، حدث ما زلزل كياني، فقد عرفت نبأ حزينا للغاية: "موت زوج ابنتي". وقد لاحظت في ذلك اليوم أنني بدأت أفقد المقدرة على النطق أحيانا. تمرّد جهازي العصبي عليّ وأخذ يتصرّف بإرادته مستقلاً عني، بعد أن وضعته داخل ثلاّجة ربع قرن، إذ قرّر أن يستجيب وبحدّة لأي شيء دون تدخل واع مني. فكنت حين أود عبور شارع ما، أخاف، رغم معرفتي الواعية بأن العبور لن يسبّب لي شيئا) [15] (...وأشير إلى هذه الفترة من حياتي بالزلزال أو الكابوس، وذقت طعم المرض والموت لا كمقولات مجرّدة وإنّما كتجربة حيّة عشتها بنفسي) [16].

وعندما اشتد عليه مرض " الميلوما الأحاديةSolitary Myeloma " وهو شكل من أشكال السرطان الذي يصيب خلايا البلازما في نخاع العظام، وهو سرطان يأكل العظام والأنسجة المحيطة، وخضع لعدة عمليات في الولايات المتحدة انتهت باستقرار الحالة دون القضاء عليها، فقد اتخذ المسيري من المرض ومن الموت موقفا فلسفيا دعاه للتأمل في جملة أمور:

- الإحساس الجمالي بالموت، حين يحس الإنسان بأنه قدّم شيئا للبشرية ولأمته، كشجرة البامبو الصينية التي تعلوها زهرة ملوّنة جميلة، وهو نوع من البامبو يظل ينمو لمدّة تسعة وثلاثين عاما ثمّ يزهر في العام الأربعين ويموت بعدها. ولقد أكمل المسيري مشاريعه الفكرية الضخمة، ومنها الموسوعة العظيمة، وتوفاه الله محتسبا ومطمئنا.

- العلاقة التي تربط الموت بالحياة والنمو والتاريخ والزمن، فكلما أحس الإنسان بالموت ازداد تشبّثا بالحياة وتطور مجهوده وإنتاجه طمعا في ترك أثر فيها، كما أنه يدرك قيمة الوقت وميزان أي لحظة من لحظات حياته: (بدأت كتابة الموسوعة وأنا في الثلاثينيات من عمري، وكنت أعمل فيها ليل نهار. أبدأ في السادسة صباحا ولا أنتهي إلاّ في الثانية عشرة مساء. وعلى الرغم من تقدّمي في السن فإن حصّتي من النشاط والصحة كانت آخذة في الازدياد بحيث كنت أكثر

نشاطا في الثامنة والخمسين مني في الخامسة والثلاثين) [17]... (بل كنت قبل أن أخلد للنوم أضع إشكالية ما في عقلي، ثم أنام على أن يستمر عقلي في التفكير، حتى إذا استيقظت في الصباح ألفيت بعض ملامح الحل قد تبلورت) [18].

- التمسك بإيحاءات الوجدان للإبقاء على أمل الحياة مع ضيق أفق الطب رغم ما وصل إليه من تطورات رهيبة. ويذكر المسيري في ذلك لجوءه إلى الطب البديل، كالعلاج بالأعشاب والإبر الصينية، ويتساءل: (ولا أدري هل استقرّت حالتي بسبب الطب العادي أم بسبب الطب البديل أم بمزيج بينهما) [19] وينقل شهادة أحد أساتذة جامعة أكسفورد حين حدّد الأطباء تاريخ وفاته بستة أشهر على أقصى تقدير وإذا لجأ إلى العلاج الكيمياوي فسيموت فورا. فبدأ رحلة علاج مع أنواع مختلفة من الطب البديل، وبعد مرور عشر سنوات من نبوءة وفاته، ألّف كتابا بعنوان:"برهان حي: تمرد طبي" يؤسّس لشرعية وفعالية الطب البديل[20]. وكل ذلك عند المسيري من أكبر الأدلة على الإيمان بالله ورحمته في مقابل قصور وعجز الإنسان .

4- **فضاءات السياسة:** مرّ المسيري بتجارب نضالية عديدة، مع أحزاب اليمين واليسار، واستقر به المطاف في التأسيس لشكل جديد لم يعهده العالم العربي، ألا وهو "حزب الوسط" الذي تقوم فلسفته على علمانية جزئية لا تأخذ أي مفهوم إيديولوجي للعلمانية التقليدية، وإنما مقصوده أن المرجعية العليا التي تحكمه مرجعية أخلاقية قيمية باستلهام ديني مع إعطاء المجال الواسع للمجتمع المدني. ويعتبر ذلك منسجما تماما مع التعاليم الكلية للإسلام .

ورغم هذا الترحال والتأسيس، إلاّ أنه لم يهتم بالسياسة الاهتمام التقليدي المعروف، وإنما كان اهتماما معرفيا فلسفيا من خلال التأمل في الصراعات الطبقية والتناقضات الاجتماعية، ودراسة مشكلة الأقليات والجماعات الوظيفية... وهو الذي قدّم ورقة عمل إلى نائب الوزراء الماليزي السابق "أنور إبراهيم" سنة 1995 حول نظرية الجماعات الوظيفية وكيف أنه يمكن استخدامها كنموذج لتفسير وضع الصينيين في ماليزيا. وقد تركت انطباعا طيّبا وقام "أنور إبراهيم" باستخدامها في تفسير بعض الظواهر الأخرى من المجتمع الماليزي.

وهذا الاهتمام المعرفي الفلسفي بالسياسة أدى به إلى نقد الكثير من الإيديولوجيات والنظريات السياسية، كالعلمانية الشاملة، والليبرالية والشيوعية والأصوليات الكمونية، والصهيونية التي كرّس لها جل حياته (نقدها وفضحها).

أما من ناحية الرمزية والمرجعية التي حاول الكثيرون إلباسها إياه، فقد رفضها رفضا قاطعا واعتبرها نوعا من الكهنوتية والنرجسية المحطمة للفعل الحر والديمقراطي وتحطيم للحراك الاجتماعي والسياسي، بل الأولى ترك الأعمال الفكرية هي التي تعبّر عن المرجعية وبتمظهرات مختلفة. لذلك كان يرفض تقمص المشيخة حتى وهو في معمعة تقدير الجماهير، كما حدث له في إحدى زياراته إلى تركيا عندما أقبل الناس يقبّلون يده. وفي ذلك دلالة ساطعة على تجرّد رجل الفكر من ذئب الشهرة.

و رغم هذا الاهتمام العلمي المعرفي بالسياسة فقد أصابه رذادها، حيث تعرّض للتهديدات والمضايقات، كما حدث في عديد المرات من الوكالات الصهيونية، ومن النظام في الداخل، لعل آخرها بعد صدور هذه المذكرات حين أبعد إلى صحراء سيناء، وهو الذي كان يمازح بعض رفاقه عند الإفراج عنهم: (خرجتم إلى حركة التاريخ) [21].

5-**الموسوعة - الحياة:** تمثّل الموسوعة التي أنجزها المسيري حول اليهود واليهودية والصهيونية تجربة فريدة جديرة بالتأمل، فقد كان فيها سمات الكائن الحي[22]، مرّت من مرحلة إلى مرحلة، ومن طور إلى طور حتى استوت هيئة كاملة بعد خمس وعشرين سنة. وقد اعتبر المسيري هذا المشروع بمثابة الرئة التي يتنفّس بها .

وقد بدأت فكرة تأليفها عند كتابة :"نهاية التاريخ"، فوجد المسيري نفسه ملزما بترجمة بعض المصطلحات والشخصيات في كل صفحة يمرّ بها وكانت كثيرة، وكانت أكثرها ذات صلة باليهود واليهودية والصهيونية، ونظرا لضخامتها وخاصة أنه عرّف بكلها تقريبا نظرا لقلة الدراسات المعرّفة بها، فقد ارتأى بعد ثلاث سنوات أن يخرِج موسوعة معلوماتية حول المصطلحات والمفاهيم

الصهيونية، ولكنه أدرك عدم جدواها بهذه الطريقة الشائعة والمعروفة، فنشأت فكرة كتابة موسوعة تفكيكية شاملة، تحاول تفكيك المصطلحات لتوضيح المفاهيم والتحيّزات الكامنة وراءها بدلا من الاكتفاء بتلخيصها والعرض لها. وبدأ المسيري فعلا عملية تحديث للموسوعة المختصرة سنة 1975 بالولايات المتحدة وخرجت إلى النور سنة 1999.

لقد اعتبر المسيري هذا العمل تركيبيا تأسيسيا وفتحا جديدا في دراسة المفاهيم والظواهر الإيديولوجية والدينية . وفي أثناء هذه الرحلة اعترته جملة قناعات جديدة لعل من أهمها على الإطلاق والتي يشير إليها بفترة (1984- 1985)، تحوّل الإسلام بالنسبة إليه من كونه مجرد عقيدة يؤمن بها إلى رؤية للكون يمكن للإنسان أن يولّد منها نماذج تحليلية ذات مقدرة تفسيرية عالية، وأدرك بالمقارنة أن الإسلام يعطي إجابات شافية في شتى مناحي الحياة والوجود.

ومن هذه القناعات أن إسرائيل بنية استيطانية إحلالية، وأن عنصريتها وعدوانيتها وتوسّعيتها جزأ لا يتجزّأ من وجوها، لذلك تحولت "الموسوعة" في ذهن المسيري إلى معركة ضارية مع العنصرية والاستعمار، وأن عداءه للصهيونية نابع من عدائه لكل إيديولوجيات العنف والعنصرية (كالنازية، والاستعمار الفرنسي، والتفرقة العنصرية في جنوب إفريقيا).

وقد أحدثت الموسوعة ضجة كبيرة عند طبعها، وتوّج المسيري بجائزة الدولة التقديرية لأحسن مؤلَّف عام 1999، وتركت آثارها على دراسات مقارنة الأديان وعلى مناهج التحليل السياسي والتحليل العلمي، وكشفت عمق تغلغل الجماعات اليهودية والصهيونية في تركيبة الدول والمجتمعات، وغيّرت المفهوم التقليدي السائد عن الصراع الاجتماعي والديالكتيك التاريخي.

خارج المذكرات:

رحلة المسيري طويلة وغزيرة بالإيحاءات والدلالات والقراءات، ولم نرد أن نصبغها بلون معيّن لندع الجميع ينهل على حسب خلفيته ومخياله واهتماماته، فهي بالغة الثراء، يمتزج فيها الفكر بالأدب والدين والسياسة، ويطرح فيها المسيري أسئلة حرجة دون شعور بالذنب، ويختلط فيها العام بالخاص، يعرّف

بآلامه وآماله وخلجاته مع نفسه ومع مجتمعه ومع الآخر الأمريكي والأوربي . محطة إثر محطة دون تقيّد بالتراتبية الزمنية والجغرافيا المكانية، فهي سيرة غير ذاتية وغير موضوعية أعتبرها شخصيا فتحاً في منهجية كتابة السير الذاتية.

ولا أخفي شجوني وحزني لوفاة المسيري بعد ثلاث سنوات من كتابة هذه المذكرات، وأنا الذي تشرّفت بزيارة إلى بيته بمصر الجديدة بالقاهرة رفقة الصديق العزيز والباحث المتألق الدكتور محمد عبد الحليم بيشي سنة 2006، وقد كانت جلسة فكرية بامتياز رحلنا مع أستاذنا الكبير في عالم الفكر من لدن الهرمسية والغنوصية إلى النزعات مابعد الحداثية المعاصرة، ختمها بإهدائنا كتابه الجديد الصادر عام 2006، وهو:"دراسات معرفية في الحداثة الغربية". فأسأل الله أن يرحمه برحمته الواسعة ويسكنه جنة الرضوان.

وهذا عرض عام لأهم مؤلّفاته:

- نهاية التاريخ : مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني- 1972.
- موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية- 1975.
- العنصرية الصهيونية - 1975 .
- اليهودية والصهيونية وإسرائيل – 1975.
- الفردوس الأرضي: دراسات وانطباعات عن الحضارة الأمريكية – 1979.
- الغرب والعالم – 1985.
- الاستعمار الصهيوني وتطبيع الشخصية اليهودية – 1990.
- الجمعيات السرية في العالم – 1993.
- إشكالية التحيّز – 1993.
- أسرار العقل الصهيوني – 1996.
- الصهيونية والنازية والتاريخ – 1997.
- من هو اليهودي – 1997.
- موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيري جديد (ثمانية مجلّدات) - 1999.

- فكر حركة الاستنارة وتناقضاته – 1999.
- قضية المرأة بين التحرّر والتمركز حول الأنثى – 1999.
- العالم من منظور غربي – 2001.
- الجماعات الوظيفية اليهودية: نموذج تفسيري جديد – 2001.
- أغنيات إلى الأشياء الجميلة (ديوان شعر)- 2002.
- انهيار إسرائيل من الداخل – 2002.
- الإنسان والحضارة والنماذج المركّبة: دراسات نظرية تطبيقية – 2002.
- مقدمة لدراسة الصراع العربي الإسرائيلي: جذوره ومساره ومستقبله – 2002.
- الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان – 2002.
- اللغة والمجاز: بين التوحيد ووحدة الوجود – 2002.
- العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة – 2002.
- أغاني الخبرة والحيرة والبراءة: سيرة شعرية، شبه ذاتية شبه موضوعية- 2003.
- الحداثة وما بعد الحداثة – 2003.
- البروتوكولات واليهودية والصهيونية – 2003.
- الموسوعة الموجزة (اختصار للموسوعة المشهورة) – 2003.
- التجانس اليهودي والشخصية اليهودية – 2004.
- دراسات معرفية في الحداثة الغربية – 2006.

بالإضافة إلى أعمال منشورة باللغة الإنجليزية . وقد ترجمت بعض أعماله إلى الإيرانية والبرتغالية والتركية والفرنسية والمالاوية.

الهوامش:

1-أنطوان آرثو: مسرحي فرنسي ولد سنة 1895، وتوفي سنة 1946، صاحب نظرية "مسرح القوة".(انظر: ملحق العمى والبصيرة، لدي مان، ص289).

2- انظر: بول دي مان، ملحق العمى والبصيرة، العمى والبصيرة: مقالات في النقد المعاصر، ترجمة سعيد الغانمي، المجمع الثقافي، أبوظبي، 1995، ص289.

3- المسيري، المذكرات، ص6.

4- هيو سلفرمان، نصيات بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية، ترجمة حسن ناظم وعلي حاكم صالح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – بيروت، ط1، 2002، ص 37- 38.

5- د.أحمد ثابت، المسيري وتجربته الفكرية، الكلمة- مجلة فصلية تصدر ببيروت، العدد35- السنة التاسعة – ربيع 2002، ص152.

6- المرجع نفسه.

7- المذكرات، ص29.

8- المذكرات، ص29.

9- المذكرات، ص16.

10- المذكرات، ص131.

11- مجلة الكلمة، المرجع السابق، ص152.

12- المذكرات، ص257.

13- المذكرات، ص257.

14- المذكرات، ص436.

15- المذكرات، ص97.

16- المذكّرات، ص 98.

17- المذكرات، ص96.

18- المذكرات، 97.

19- المذكرات، ص107.

20- المذكرات، ص107.

21- برنامج تلفزيوني مباشر، الجزيرة مباشر، أحداث 6أفريل 2008.

22- د. عمرو شريف، رحلة عبد الوهاب المسيري: قراءة في فكره وسيرته، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط1، ص405.

ملاحظة:

أستخدمُ مصطلح: "المذكرات"، للتعبير عن كتاب المسيري: "رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمار"، اختصارا .